المحاضرة الأولى: أشكال النثر العربي قبل الإسلام وبنياته (الخطب/الوصايا/ الأمثال/الحكم)

أولا–الخطابة في العصر الجاهلي:

الخطابة فن قولي عربي أصيل، قديم قدم الفصاحة والبيان عندهم، يتصدر فنون النثر القديم، ويتشكل جزء كبيرا من حياة عرب الجاهلية، فبها تشحذ الهمم وتلهب المشاعر وتستثار في الحروب والخصومات، وبواسطتها تتفاخر القبائل بأحسابها وأنسابها وأيامها وبطولاتها، وبها تستعر نار الإحن والمنازعات وتؤجج العصبيات القبلية، بل وامتد هذا إلى أبناء القبيلة الواحدة كما هو الحال بين علقمة بن علاثة وابن عمه عامر بن الطفيل[1]، وبها أيضا تهدأ النفوس ويصلح بين القبائل تعددت مناسبات الخطابة وأسبابها وتنوعت أغراضها وموضوعاتها، فلازمتهم في المفاخرات والمنافرات ومختلف مظاهر الحياة الإجتماعية كالمصاهرة والميلاد والنصح والإرشاد... وفي حياتهم السياسية كالتحميس على القتال وتحسينه وتحبيبه أو ذمه والتحذير من عواقبه، أو دعوة الأطراف المتناحرة إلى الصلح... وفي المحافل العظام والوفادة على الملوك والأمراء...

امتاز عرب الجاهلية بالارتجال في خطبهم، فدون مكابدة تأتيهم المعاني وتنثال عليهم الألفاظ في سلاسة ويسر، يقول الجاحظ: "وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن ضغط علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ماعلق بقلوبهم والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب"[2]

منزلة الخطيب:

إذا كان للشاعر مكانته التي جعلت القبائل تحتفل وتغتبط بظهوره وتفخر بنبوغه، فإن الخطيب ما لبث أن لحق به ونازعه هذه المنزلة العلية وربما تفوق عليه، يقول أبو عمر بن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم ويهول عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"[3]

ويعلل تفوق الخطيب على الشاعر بكون الخطابة من لوازم سادتهم الذين يتكلمون باسمهم في المواسم والمحافل بحيث تقترن بها الحكمة والشرف والرياسة والشجاعة،نلاحظ ذلك في مراثيهم لسادتهم ومدائحهم لسادتهم، يقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلدة:

أبا دليجة من يكفي العشيرة إذ أمسو من الخطب في نار وبلبال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذوي أيد وأفضال

ويقول الأعشى في مدح قوم:

فيهم الخصب والسماحة والنـــجـــــــدة جمعا والخاطب الصلاق

ويقول عامر المحاربي:

أولئك قومي إن يلذ ببيوتـــــهم أخو حدث يوما فلن يتهضما
وهم يدعمون القول في كل موطن بكل خطيب يترك القوم كظما

يقوم فلا يعيا الكلام خطيـــبنا إذ الكرب أنسالحبس أن يتكلما

ويقول ربيع بن مقروم الضبي:

ومتى تقم عند اجتماع عشـيرة خطباؤنا بين العشيرة يفصل

ومن أسباب تفوق الخطيب على الشاعرإضافة إلى ما أورده الجاحظ عنأبي عمرو بن العلاء، اتساع وظيفة الخطيب فقدكان ينافر ويفاخر عن قومه ويحض على القتال وينفرد بمواقف خاصة به كالوفادة على الملوك والنصح والإرشاد وخطابة الإملاك والزواج، والدعوة إلى الصلح، بينما يدعو الشاعر في الغالب إلى الأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب.

وهذا دلائل على أن الخطيب كان قمة في قومه وسيدا في رهطه ومصدر فخر لهم ولنفسه وقبيلته، وكثيراما افتخر الخطباء أنفسهم بموهبتهم واقتدارهم في فن القول، وقد جمع بعضهم بين الخطابة والشعر أمثال قيس بن عاصم المنقري والأقرع بن حابس وابن وابصة.

أشهر خطباء الجاهلية:

لئن كانت الخطابة فضيلة شائعة بين القبائل العربية، فإن قبائل بعينها اشتهرت بها وعلا شأنها وفضلت غيرها، وقد عدت إياد وتميم من أخطب القبائل العربية، من أشهر خطباء إياد قس بن ساعدة الإيادي الذي يضرب المثل بفصاحته وحكمته، ومن أشهر خطباء تميم ضمره بن ضمرة وعمرو بن الأهشم المنقري وأكثم بن صيفي وعطارد بن حاجب بن زرارة، وقد استمرت زعامة تميم في الخطابة إلى مابعد الجاهلية، فوصف البعيث المجاشعي بأنه أخطب الناس، كما عدت قريش من أفصح القبائل العربية قريش ومن أشهر خطبائها هاشم وعبد المطلب بن هاشم وأمية وابنه حرب وعتبة بن ربيعة وسهيل بن عمرو الأعلم ونفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية، وقد هيأ لهذه الكثرة وجود دار الندوة التي كانت أشبه بمجلس شيوخ مصغر يجتمعون فيه ويخطبون ويتناظرون ويتحاورون...

ومن خطباء عدوان وربيعة نذكر عامر بن الظراب، ومن أسد ابن حذار الذي احتكم إليه الزبرقان بن بدر وعبدة بن الطيب والمخبل السعدي أيهم أشعر، ومن ضبة حنظلة بن ضرار، ومن تغلب عمرو بن كلثوم، ومن شيبان هانىء بن قبيصة، وفي طيء لبيد بن ربيعة العامري الذي فاخر بهذه المزية في شعره، وفي غطفان قيس بن خارجة، وفي يثرب قيس بن شماس وابنه ثابت، ومن خطباء الأنصار سعد بن الربيع[4].

وممن اشتهر باللسن والفصاحة والخطابة عمار الطائي وهو خطيب مذحج كلها، وهانئ بن قبيصة خطيب شيبان يوم ذي قار، وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاعة، وهرم بن قطبة الفزاري صاحب المنافرة المشهورة بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، رآه عمر بن الخطاب يوما في المسجد فقال له "أرأيت لو تنافرا إليك أيهما كنت تنفر، فقال: يا أمير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جدعة(يعني العصبيات)، فقال عمر: لهذا العقل تحاكمت إليك العرب"

ضوابط الخطابة وشروطها: كان للخطباء في الجاهلية وما بعدها سنن خاصة في أداء خطبهم، منها أنهم كانوا يخطبون على رواحاهم في المواسم العظام والمجامع الكبار، ومن عاداتهم لوث العمائم على رؤوسهم والإشارة أثناء الخطبة بالعصي والمخاصر والقنا والقضبان والقسي، وقد حملت الشعوبية فيالعصر العباسي حملة شعواء على العرب لاتخاذهم العصي والقسي والقضبان، وقد رد عليهم الجاحظ ردا طويلا مفحما أول الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين.

كما كانوا يمتدحون الصوت الجهوري الشديد ويعيبون ضيق الصوت ودقته، وأن يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرعدة أو يعتريه شيء من الحصر والعي، يقول أبو العيال الهذلي:

ولا حصر بخطبته إذا عنت الخطب، كما كرهوا أن يمس الخطيب ذقنه وسباله وشواربه أثناء الخطبة، وفي المقابل يمتدحون في الخطيب شدة العارضة وظهور الحجة وثبات الجنان وكثرة الريق والعلو على الخصوم في مضايق الكلام ومآزق الخصام...

أغراض الخطابة الجاهلية(موضوعاتها):

استهدفت الخطابة في العصر الجاهلي أغراضا تختص بها دون غيرها من الموضوعات استجابة لطبيعة الحياة آنذاك نحو الوعظ والنصح والعزاء والخطبة والزواج والدعوة إلى الحرب أو الحض على السلام والصلح، هذا إضافة إلى وصايا كبار القوم لرهطهم وأبنائهم، وهم في كل ذلك يتوخون على السليقة المعنى الشريف والصياغة السلسة واللفظ المنتقى المؤثر في السامع، ويستأنسون ببعض الظواهر اللغوية والبلاغية كالسجع والإزدواج وضرب الأمثال والحكم، ومن أهم موضوعات الخطابة الجاهلية[5]:

1- خطابة الوعظ والنصح: تكون عادة من كبار القوم الفصحاء ذوي الحنكة والخبرة والتجارب،أشهرها خطبة قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ وقد وقف على ظهر جمل أحمر، فيها دعوة إلى التوحيد ومكارم الأخلاق، منها قوله: "أيها الناس اجتمعوا، فاسمعوا، وعوا، من عاشمات، ومن مات فات، وكل ماهو آت آت، آيات محكمات، مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، ونجوم تمور، وبحور تغور، وسقف مرفوع ومهاد موضوع، وليل داج، وسماء ذات أبراج. مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا، يا معشر إياد أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد، أين المعروف الذي لم يشكر، والظلم الذي لم ينكر، أقسم قس قسما بالله أن لله دينا هو أرضى له من دينكم هذا، ثم أنشد:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر.

2- خطب إصلاح ذات البين: نظرا للصراعات الدائمة والحروب الدائرة والعصبيات المتأججة فقد عرف العرب من الحكماء من حاول إخمادها، ومن الخطب البليغة في تهدئة المشاحنات خطبة مرثد الخير بن ينكف وهو واحد من أقيال العرب، عالج فيها مشاحنة كادت تشعل حربا بين حيي سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب بن ذي رعين، كانا قد تنازعا الشرف، فاستدعى الفريقين ودعاهما إلى نبذ الحرب وترك نارها... يقول: "إن التخبط وامتطاء الهجاج، واستحقاب اللجاج، سيقفكما على شفا هوة، في توردها بوار الأصيلة وانقطاع الوسيلة... فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صيور أمورهم، فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثأي واستفحال الداء، وإعواز الدواء، فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء، وإذا استحكمت الشحناء تقضبت عرى الإبقاء وشمل البلاء" فقام سبيع مثمنا قوله ومضيفا إليه ومفاخرا بقومه، ثم قام ميثم هو الآخر خطيبا متحديا، وأمام تضاؤل فرص الصلح بينهما قام فقال: "لا تنشطوا عقل الشوارد وتلقحوا العون القواعد، ولا تؤرثوا نيران الأحقاد ففيها المتلفة المستأصلة والجائحة والأليلة... وأنيبوا إلى السبيل الأرشد والمنهج الأقصد، فإن الحرب تقبل بزبرج الغرور وتدبر بالويل والثبور..." ثم أنشد شعرا فقبل الطرفان الصلح.

3- خطابة العزاء:

من أمثلتها خطبة المنيب بن عوف يعزي الملك سلامة ذا فائش ويواسيه، وكان له ابن نجيب كبا به الفرس فوقع ومات، فحزن عليه أبوه حزنا شديدا واحتجب من الناس حتى جاءت إليه وفود العرب تعزيه وتواسيه، وكان من المواسين الملبب بن عوف الذي صبر الملك بأسلوب الحكمة وضرب الأمثال، منها قوله: "أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب، وتعطي لتأخذ، وتجمع لتشتت وتحلى لتمر، وتزرع الأحزان في القلوب، بما تفجأ به من من استرداد الموهوب، وكل مصيبة تخطأتك جلل، ما لم تدن الأجل، وتقطع الأمل، وإن حادثا ألم بك فاستبد بأقلك وصفح عن أكثرك، لمن أجل النعم عليك، وقد تناهت إليك أنباء من رزىء فصبر، وأصيب فاغتفر، إذ كان شوى فيما يرتقب ويحذر. فاستشعر اليأس مما فات إذا كان ارتجاعه ممتنعا، ومرامه مستعصيا، فلشيء ما ضربت الأسى وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء"

4- خطابة المصاهرة وطلب الزواج:

من نماذجها خطبة عامر بن الظرب العدواني لما تقدم إليه صعصعة بن معاويةخاطبا ابنته عمرة، يقول: "يا صعصعة إنك جئت تشتري مني كبدي، وأرحم ولدي عندي،منعتك أو بعتك، النكاح خير من الأيمة، والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك أفر من السر إلى العلانية، أنصح إبنا وأودع ضعيفا قويا"

ثم التفت إلى قومه وقال: "يا معشر عدوان: أخرجت من بينأظهركم كريمتكم على غير رغبة منكم، ولكن من خط له شيء جاءه، رب زارع لنفسه حاصد سواه، ولولا قسم الحظوظ على قدر الجدود ما أدرك الأول شيئايعيش به، ولكن الذي أرسل الحيا أنبت المرعى، ثم قسمه أكلا، لكل فم بقلة، ومن الماء جرعة، إنكم لا ترون ولا تعلمون، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذي قلب واع،ولكل شيءراع ولكل رزق ساع، إما أكيس وإما أحمق، وما رأيت شيئا إلا سمعت حسة ووجدت مسة..."

5- خطابة المنافرات:

إذا تنازع طرفان في الصدارة وصفات الشرف تنافرا إلى واحد من أكثر حكماء العرب ليقضي أيهما أحق بالمآثر وكريم الصفات، ويرجح كفة أحد الطرفين، فكان الواحد منهما يقول للآخر: أنا أعز منك نفرا ويظل يذكر الدليل إثر الدليل، وكذلك يفعل غريمه، إلى أن يحكم بينهما من احتكما إليه، وهي عادة جاهلية ذميمة حرمها الإسلام ونهى عن الخوض فيها. من منافرات الجاهلية تلك التي جرت بين جرير البجلي وخالد بن أرطأة الكلبي وقد احتكما إلى الأقرع بن حابس، ولعل أشهرها منافرة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص.

6- خطابة الوصايا:

من خطب الجاهلية ما يصاغ على شكل وصية تخاطب العقل والوجدان وتكون عادة من كبار القوم ذوي الخبرة والتجارب، نذكر منها وصية أكثم بن صيفي خطيب تميم وحكيمها إلى بنيه ورهطه: "يا بني تميم لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لكلاما لا أجد له مواقع إلا أسماعكم، ولا مقار إلا قلوبكم، فتلقوه بأسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته، الهوى يقظان، والعقل راقد، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفس مهملة، والروية مقيدة... ولن يعدم المشاور مرشدا، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل، ومن سمع سمع به، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع، ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا مقاتل الكرام، وعلى الإعتبار طريق الرشاد، ومن سلك الجدد أمن العثار، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه، ويشغل فكره، ويؤرث غيظه، ولا يتجاوز مضرته نفسه، يا بني تميم الصبر على جرع الحلم أعذب من جني تمر الندامة، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان، والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم، فإذا نجمت فهي أسد محرب أو نار تلهب، ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجوز، ونفاد الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب..."

ففي هذه الوصية تلوح بوادر الحكمة والعقل والصدق في النصح وسداد الرأي وحسن التوجيه والإرشاد، ويكفي أن أكثم هو من دعا قومه إلى اعتناق الإسلام ومناصرته،ومن نماذج هذه الخطابة وصية أبي طالب لوجوه قريش وقد حضرته المنية، يقول فيها: "يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدام الشجاع، الواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبا إلا أحرزتموه، ولا شرفا إلا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلى حربكم ألب، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية(الكعبة)فإن فيها مرضاة للرب، وقوما للمعاش، وثباتا للوطأة، صلوا أرحامكم فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل، وزيادة في العدد، واتركوا البغي والعقوق، ففيهما هلكت القرون قبلكم. أجيبوا الداعي واعطوا السائل، فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام.

وإني أوصيكم بمحمد خيرا، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا، ودورها خرابا، وضعفاؤها أربابا، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم لديه، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له بلادها، وأعطته قيادها. يا معشر قريش كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ بهديه أحد إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة، وفي أجلي تأخير لكففت عنه الهزائز، ولدافعت عنه الدواهي"(6)

7- سجع الكهان:

اختص به أناس أضفوا على أنفسهم هالة زائفة من التدين ، والتزموا سمتا معينا من البهرج المستقبح والسجع الممجوج، وادعوا التنبؤ ومعرفة الغيب وأنها تنطق عن آلهتهم بما سخر لها من الجن، عرفوا بالكهان، ويسمى تابع الواحد منهم رئيا، كانت القبائل تفزع إليهم في الملمات لاستثارتهم، كإعلان الحرب أو القعود عن نصرة أحلاف أو الكشف عن جرم أو تقديم نذر، كما يلجأون إليهم للحكم بينهم أو المنافرة، ويمتثلون لحكمهم الذي لا ينقض ولا يرد، وهناك من يلجأ إليهم لتأويل الرؤيا والأحلام، وبدورهم يتنبأون لأقوامهم بالملمات. مما يؤكد سمو قدرهم وعلو مكانتهم وسلطتهم التي تتجاوز حدود القبيلة، فقد تتخطى شهرة الكاهن أن تقصده العرب من كل حدب وصوب مثل كثير من كهان اليمن،حتى قيل إن جمهور الكهان كانوا يمنيين، أشهرهم سطيح الذئبي وشق بن مصعب الأنماري فإليهما فزع نصر بن ربيعة ملك اليمن لتفسير رؤياه، وقد بالغ القصاص في سرد أخبار عجيبة عنهم (فزعموا ألا عظم في سطيح سوى جمجمته، وأن شق نصف إنسان...)، ومن كهانهم المشهورين المأمور الحارسي من فرسان مذحج بأمره تتقدم أو تتأخر، وخنافر الحميري وقد دخل الإسلام، وعوف بن ربيعة الأسدي الذي أشار على قومه بالثورة على حجر بن الحارث الكندي وقتله، وسلمة الخزاعي الذي تنافر إليه هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس فنفر هاشما، وسواد بن قارب الدوسر، وعزى سلمة وهو أكهنهم جميعا، كما وجدت كاهنات مثل الشعثاء وزبراء وكاهنة ذي الخلطة والسعدية والزرقاء وبنت زهير والغيطلة القرشية.

تضمنت كتب التاريخ والأدب بعض أقوالهم التي تلتزم السجع والغموض، وفي كلامهم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم "أسجع كسجع الكهان"، وقد نفى القرآن الكريم عن الرسول صلى الله عليه وسلم صفة الكاهن (ما أنت بنعمة ربك بكاهن/ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) ، كما نلاحظ اعتمادهم في خطبهم على الأيمان والأقسام بالأرض والسماء والشمس والكواكب، والإغراب في ألفاظهم للإيهام والتأثير في نفوس السامعين، فكانوا يبالغون في كل ذلك حتى تنغلق معانيهم وتغمض الدلالات وتكثر الاحتمالات عند المتلقين، فيصبح القول أقرب إلى الرمز الحمال لأوجه كثيرة.

خصائص الخطابة الجاهلية:

– من أهم خصائصها الصنعة فقد تميز عرب الجاهلية بحبهم البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطابتهم من حيث الصقل وتجديد الألفاظ وتخير مخارج الكلم وجهارة الصوت بل والرغبة في سعة الشدق وهدل الشفاه، حتى بلغوا التكلف، وإن لم يصلنا من خطابتهم إلا النزر اليسير.

– وقد بنيت أغلب الخطب على السجع والمحسنات البديعية والزخارف اللفظية، يقول الجاحظ: "ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حذار"، فقد كانوا يعمدون إلى العبارات المسجوعة ليكون لها وقع موسيقي في الأسماع فترتاح إليها النفوس، وكانوا يكثرون من باقي المحسنات البديعية الأخرى كالمقابلة والطباق والازدواج والترادف والجناس، كل ذلك على السجية دون تكلف أو عناء، يقول الجاحظ: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام... فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا".

– وكانوا يدمجون في هذا السجع صورا من التشبيه والإستعارات وكذلك التجويد والتحبير.

– وكانوا يهيئون الكلام في عظائم الأمور وصعاب المهمات، يعدونه في صدورهم.

– وكانوا يدبجون الخطب ويزينونها، وكثيرا ما وصفوا خطبهمبأنها كالوشي المنمق ، يقول الجاحظ: "ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حذار".

– وكانوا يدمجون في هذا السجع صورا من التشبيه والإستعارات والأخيلة والتصاوير وكذلك التجويد والتحبير، وكثيرة هي الصور المستوحاة من مظاهر الحياة الحسية، كتشبيه العرب بالجبال، والبحور، والنجوم الزواهر، والحصى عددا، يقول علقمة بن علاثة لكسرى: "أيها الملك من يبل العرب يعرف فضلهم، فاصطنع العرب فإنها الجبال الرواسي عزا، والبحور الزواخر طميا، والنجوم الزواهر شرفا، والحصى عددا"، ومثلها حكم هرم بن قطبة الفزاري بين علقمة وعامر، وخطبة الكاهنة شعثاء في وصف الإخوة السبعة ففيها تشبيهات وكنايات لطيفة واستعارات رائعة[7].

– وكانوا يهيئون الكلام في عظائم الأمور وصعاب المهمات، يعدونه في صدورهم.

– وكانوا يدبجون الخطب ويزينونها، وكثيرا ما وصفوا خطابتهم بأنها كالوشي المنمق الشبيه بوشي الثياب، وبلغ من جمال خطبهم أن اقترحوا لها أسماء، وتوارثوا حفظها لروعة بيانها، يقول الجاحظ: "ومن خطب العرب العجوز، وهي لآل رقبة، ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها، ومنها العذراء وهي خطبة قيس بن خارجة في حرب داحس والغبراء، سميت بذلك لأنه كان أبا عذرها"، فلم يكن غريبا أن يستمع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأهثم المنقري فيقول مقولته الشهيرة "إن من البيان لسحرا".

– ومن أهم خصائص الخطابة الجاهلية الإيجاز وقصر الجمل، والاعتدال أحيانا، لا هي بالمخلة ولا المملة، فلا تتجاوز الخطبة الفقرتين أو الثلاث فقرات قصار، كخطبة أكثم بن صيفي التي عزى بها عمرو بن هند بوفاة أخيه، أو كخطب الوفود بين يدي كسرى، ويعود هذا إلى طبيعة الحياة البدوية التي لا تستدعي التوقف عند موضوع إلا للحظات والانتقال إلى غيره. كما اتسمت الخطابة الجاهلية بقصر الجمل لأن استيعاب المستمع لمعاني الجملة القصيرة أسرع وأسهل من معاني الجملة الطويلة، ومن صور هذا القصر وضرب الأمثال والحكم، ونمثل لهذه الخاصية بخطبة علقمة بن علاثة العامري في وفادته على كسرى: "إن للأقاويل مناهج، وللآراء موالج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجحه"

– ميلهم إلى التلميح دون التصريح فقد امتاز العرب بالذكاء والبديهة وسرعة الخاطر، والقدرة على بلوغ المعنى بالتلميح والإشارة، وما شيوع الحكم والأمثال إلا تأكيد للظاهرة.

– اكتناز خطبهم بالحكم والأمثال، وكأنهم يتخذون منها قاعدة للتأثير في مسامع الناس وأفئدتهم، وحافزا لأن يتعظوا بمن سبقهم.

– تعدد الموضوعات وعدم ترابط الأفكار، ففي الخطبة الواحدة موضوعات شتى لا رابط بينها.

– عدم انضباط الخطابة في خط معين في بنائها وترتيب عناصرها من استهلال ومقدمة وتمهيد وصلب موضوع وخاتمة، فكثيرة هي التي تهجم على الموضوع دون مقدمات وتخرج دون خاتمة[8].

ثانيا: الوصايا:

هي نص قريب من الخطبة لكنها لا تتطلب جمعا من الناس، بحيث يقولها الرجل لبنيه أو عشيرته أو أهل بيته في أمر خاص عند الإحساس بدنو الأجل أو السفر، وقد تقال لجمع غفير من الناس فيما يعرف بخطابة الوصايا[9].

لم يكن للوصية حظ وافر من اهتمام القدماء رغم حضورها الواضح في المنجز النّصي لصدورها عن كافة الفئات الاجتماعية من رجال السّياسة والحكم إلى أهل الأدب والعلم وصولاً إلى أبسط طبقات المجتمع، ويرجع بعض الدارسين هذا الوضع إلى عاملين، "**أولهما** عام مرتبط بنقد النثر نفسه، و**ثانيهما** خاص متعلّق بوضع الوصية بوصفها ضرباً من ضروب المنثور الذي لم يكن مركزيا في تصورهم[10].

فلم ينلها اهتمام النقاد لكونها لا تعكس النموذج المثالي الذي يمثل البلاغة العربيّة، حيث انحصر هذا النموذج في الأجناس المركزية الثلاثة التي جاء بيانها في نصّ **أبي هلال العسكري** فـ"أجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل والخطب والشّعر وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التّركيب"[11]، وقد استحوذت هذه الأجناس على المشهد النّقديّ والبلاغيّ العربيّ.

–موضوعات الوصايا وسياقات ورودها، ومقامات استدعائها: [12]موضوعات الوصية كثيرة ومتنوعة فلا يمكن حصرها لارتباطها بسياقات اجتماعية وثقافية متنوعة، وهذا التّنوع متصل ت بطبيعة الموصي "فقد تكون صادرة عن جهة غيبية (وصايا القرآن ...) وقد تصدر عن جهة بشرية حاملة لسمات التأييد الغيبيّ تجعلها فوق بشرية كوصايا الرسل والأنبياء، وقد تكون الوصايا ذات سمت أدبي بياني خطابي محض، كوصايا الأدباء والسياسيين والخطباء والحكماء، ثم الوصايا الشعبية العامة الصادرة عن الآباء والأمهات للأبناء وغيرهم[13]، فهذه المقامات المختلفة والمتباينة تؤدي بالضرورة إلى اختلاف النصوص خاصة على مستوى المضامين وطريقة الصياغة والبناء، فالوصية في الواقع الإبداعي ليست حكراً على الأدباء ولا على مجال معين من التفكير، فلا تنتج الجهة الموصية نصاً أدبياً بالضرورة.

والوصية خطابٌ مرنٌ، يرد في صورة نّص متكامل ذي بنية مستقلة، يتخذ الصيغة النثرية غالبا، وقد ترتحل فتستدعي عنصراً مكوناً لأنماط قولية مغايرة، قريبة منها، كالخطبة والحكمة والمثل والرسالة والكتاب والموعظة والخطاب الديني أو بعيدة عنها كالخطاب التاريخي والسردي، السّيري"[14].

كل ذلك يبعدها من أن تصبح أنموذجا للبلاغة العربية، لذلك ظلت رغم ضخامة منجزها النصي بعيدة عن الاهتمام والعناية النقدية، فلا يكاد يخلو مؤلف من المؤلفات النقدية وكتب المختارات من ذكر لبعض الوصايا أو انتقاء مقتطفات منها والاستشهاد بها أثناء النقد، غير أننا "لا نظفر برؤية متكاملة ولا بتصوّر نقدي دقيق لأصول هذا الفن الأدبي. فأغلب ما

نستخلصه منها ورد فيها بطريقة ضمنية"[15].

– بلاغة الوصية:

تُعرَّف الوصية الأدبيّة على أنّها "خطاب شعريٌ أو نثريٌ، يتجه به المتكلّم إلى مخاطب مفرد أو بصيغة الجماعة، يتضمن عناصر تدلّ على أنّه خطابٌ ناتجٌ عن إمكان حدوث تباعد بين المتكلم والمخاطب"[16]، وقد أقيم هذا التّعريف على جملة من المعايير تفضي بنا إلى تصور الأنواع التي يمكن أن تتفرع إليها الوصية على اعتبار التّنوع الذي يمكن أن يحصل على مستوى أطراف الوصية (الموصي/الموصى/نص الوصية)، فالوصية على اعتبار النّصّ قد تكون شعراً كما قد تكون نثراً، أما على اعتبار الموصى (المخاطَب) فقد تكون وصية موجهة إلى مفرد كالابن، أو قائد الجيش، وقد تكون موجهة إلى مخاطب بصيغة الجمع كوصايا –النبي صلى الله عليه وسلم– لكل مسلم.

أما على مستوى الطرف الأول؛ المتكلّم (الموصي) فقد ركّز التّعريف على الحال التي خلفت إمكانية التّباعد بينه وبين المخاطب، والتي قد تكون الإحساس بدنو الأجل كما قد يكون التباعد مؤقتاً أو ظرفياً كالتباعد بين الخليفة وقائد جيشه على سبيل المثال.

وإمكانية التباعد أثرت بشكل واضح على بالجانب المضموني للوصية، وهذا التباعد لا يعني الموت بالضرورة بل يكون لمهام سياسية أو حربية يكلّف بها الموصى من قبل الجهة الموصية، والنّص في النهاية ما هو إلاّ جملة من النصائح والتوجيهات والمواعظ والأوامر والنواهي والتنبيهات التي رأى الموصي أنها تفيد المخاطب وتسهّل له سبل الحياة، ولذلك فقد أعطت الوصية أهمية بالغة للجانب الدلالي الذي يعدّ واحداً من المكونات الدالة على أدبية الوصية. "فالدلالة في الوصية مكونٌ أساس، لأنّها تروم تحقيق التخليق، وإحداث التغيير في الواقع الخارجي، والدفع نحو تغيير السلوك والعزم على الفعل الإيجابي وهي بمثابة دستور متكامل يسطّره الموصي، ويضمّنه كلّ القضايا التي يرى أنّها كفيلة بعصمة الموصى من الزلل، ليعيش في حياة الموصي أو بعد فنائه، في وضع مأمون من الانحراف أو الفشل، ويكون مؤهلاً لخوض معركة الصراع مع الحياة وإكراهات الزمن، بصورة لا تسلّمه إلى الندم أو الحسرة"[17].

كما أنّ العلاقة الجامعة بين طرفي الوصية (الموصي/الموصي له) لها تأثير كبير على مضمون الوصية وأسلوبها، فإذا كان الجامع بين الطرفين علاقة دموية وجدانية كعلاقة الأب بالبنين فإنّ ألفاظ الوصية تميل نحو الحقل الدلالي للمحبة والخوف ومحاولة الإقناع والتأثير عن طريق العاطفة والوجدان، فيكون الخطاب في أغلبه ليّناً، أما إن كانت العلاقة بينهما علاقة الحاكم بالمحكوم كالوصايا التي تصدر من الحكام ورجال الدولة إلى من هم دونهم من الولاة وقادة الجيوش وغيرهم، فإنّ خطاب الوصية سينحرف نحو دلالات مختلفة تتسم بالصرامة والحزم والتعبير عنها سيتجه نحو حقول دلالية أخرى لا تعكس اللين الذي يطبع النوع الأوّل من الوصايا.

وطبيعة العلاقة بين الطرفين لا تؤثر على المضامين وطرق التعبير فحسب وإنما ينسحب ذلك التأثير على سبل الإقناع والتأثير، فالرغبة في إقناع المخاطب والتأثير عليه تحول الوصايا إلى عملية حجاجيّة بين طرفي الوصية، و"الوحدة الحجاجيّة في الوصايا تتكوّن من عنصرين متلازمين تلازماً صريحاً أو ضمنيًّا وهما **الطّلب والحجّة**. وقد يورد الموصي الطّلب ويرفقه بالحجّة وهو أكثر الأشكال تواتراً. وقد يورد الحجّة مكتفياً بها داعياً الموصى له إلى استخلاص الطلب المضمّن اعتماداً على معطيات مقاليّة ومقاميّة . وقد يكتفي بالطلب دون التّصريح بالحجّة أو الحجج. وفي هذه الحال يُدعى الموصى له إلى استدعاء الحجج غير المصرّح بها. في هذه الأشكال الثّلاثة ترد الوحدة الحجاجية في الوصايا"[18].

وفي سبيل بلوغ الغاية الإقناعية تختلف طرق الخطاب من موص إلى آخر فقد يستهدف الموصي عقل الموصى كما قد يستهدف عاطفته، كما قد يمزج بين الطريقتين. وتحديد نوع الطريقة مرتبط بجملة من العوامل أهمها طبيعة الموصي وعلاقته بالموصى والمقام الجامع بينهما، وأساليب الحجاج في ذلك "منها ما يُتَوجّه به إلى عقل الموصي له من قبيل القياس المضمر والتّعريف والحِكَم والسؤال الحجاجي الباعث على التّفكير، ومنها ما يُتوجّه به إلى وجدانه من قبيل استدعاء مشهد الموت والحديث عن الذّات، ومنها ما يقع على حدّ فاصل واصل بين العقل والوجدان شأن الصور البلاغيّة ولكن الحدود بين هذه الأنواع تظلّ تقريبية لا تقريرية"[19]، لأنّ مقام الوصية يختلف من نص إلى آخر ومن موص إلى آخر وتختلف معه طرق الإقناع وأساليبه.

وعلى الرغم من الارتباط الكبير بين جنس الوصية والغايات الإقناعية التأثيرية إلاّ أنّ للوصية أبعاداً فنيّة جماليّة تجعلها محط قبول وإعجاب لدى المتلقي، وتلك الأبعاد مردها التفاعل الحاصل بين النّصّ والتجربة الإنسانية التي يعبّر عنها والتي تعطي للنص لمسة خاصة بصاحبه مختلفة عن سائر النصوص الأخرى، لانطلاقها من قناعاته الخاصة في التفكير والتعبير معاً، والوصية قائمة على جملة من الاختيارات اللغوية والأسلوبية الخاصة بالموصي دون غيره .

ومن الخصائص الأدبية الجمالية لجنس الوصية استعانتها ببعض أجناس القول الأخرى في سبيل بلوغ الغايات الحجاجية الإقناعية من جهة، وفي سبيل دعم اختياراته الأسلوبية الجمالية من جهة أخرى، ويأتي على رأس تلك الأجناس **المثل والحكمة**، ولعل هذا الاختيار مرتبط بالطاقات الدلالية والجمالية التي يختزنها كلّ من المثل والحكمة باعتبارهما من الأشكال البلاغية الموجزة التي يمكن اعتبارها خزانا للذاكرة الثقافية والفكرية.

كما يتيح هذا الضرب من التوظيف لصاحب الوصية سبلاً تعبيرية "بها يمرر المختلف فيه تمرير المتّفق عليه بل والمسلم به لئلا تكون الآراء والقيم الواردة في نصّ الوصيّة عرضةً للمناقشة والجدل والرفض. لذلك يمكن اعتبار التّعبير الضمني من أبلغ أساليب التعبير وأنفذها"[20]، كما للمثل والحكمة تأثيراً إيجابيّاً على المتلقي وبذلك يضفيان على النص نوعاً من القبول والتصديق.

وعموما فإن أسلوب الوصية لا يختلف عن أسلوب الخطبة، فهو يتسم بالإحكام والدقة والبعد عن التكلف لجديتها، كما يتسم بالسهولة والجزالة واتحاد المعنى مع لفظه، مع الاستعانة ببعض الصور البيانية دون تكلف، واعتماد المعاني السهلة البعيدة عن الغرابة والإغراب، وغالبا ما تأتي الجمل قصيرة وأحيانا مسجوعة أو مزدوجة، منسجمة غير مستكرهة[21].

–ثالثا الأمثال:

المثل عبارة قصيرة محكمة البناء، جيدة السبك، متينة الرصف، تشير إلى حادثة أو قصة سابقة مقتطعة من أحداث، بعضها واقعي صرف مثل قصة طويس، وبعضها واقعي خالطه العجائبي مثل قصة الزباء التي تحتوي أكثر من ثلاثين مثلا، وبعضها تاريخي مثل مقولة الإمام علي: أكلت يوم أكل الثور الأبيض، وتقال في مقامات مشابهة لها، فمدار هذه التسمية التشابه والتناظر، وقضية المشابهة ركن ركين في نشأة المثل[22].

لقيت الأمثال عناية خاصة من الرواة والمؤرخين وعلماء الأدب واللغة، جمعا وشرحا وضبطا، من جماعها عبيد بن شرية/ صحار العبدي/ يونس النحوي/ أبو عبيدة/ ثعلب/ أبو عبيد القاسم محمد بن سلام/ المفضل الضبي/ أبو هلال العسكري/ محمد بن زياد الأعرابي/ محمد بن حبيب البغدادي/ حمزة الأصفهاني... وقد شرحها كثيرون وأضافو إليها من أمثال صدر الإسلام، جمع صاحب مجمع الأمثال مادته من أكثر من خمسين كتابا في الأمثال، كما نجد الكثير منها في كتب اللغة والأدب

والأماليوالمختارات[23].

فالمثل من أبرز أجناس النثر الوجيزة في التّراث النّقديّ العربيّ، وقد كان لهذا الجنس حضورٌ واضحٌ في أمهات الكتب التراثية[24]،على نحو ما نجد في العقد الفريد أين خص **ابن عبد ربه** (ت 328 هـ) للأمثال فصلا كاملا من كتابه. كما أفردت لهذا الجنس كتب كاملة اهتمت بجمع الأمثال وتصنيفها منذ بدايات العصر الأموي، "إلاّ أننا لا نجد بين النّقاد (...) من نَصَّ صراحة على أنّ الأمثال جنسٌ من أجناس الخطاب النّثريّ مثل الخطابة والرسائل"[25]، رغم ورود نصوص نقدية صريحة تقرّ ببلاغة المثل بل واعتباره شكلاً من أشكال البلاغة ذاتها وفي هذا السياق نذكر نصاً **لأبي سليمان المنطقي** فيما أورده عنه **أبو حيان التوحيدي** يعدد ضروب البلاغة فيقول: "البلاغة ضروب: فمنها بلاغة الشّعر، ومنها بلاغة الخطابة، ومنها بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثل"[26]، وهو اعتراف بالجمالية الواردة في المثل التي من شأنها أن تجعل منه جنسا من الأجناس الأدبية على غرار الخطابة والشعر وغيرهما، غير أنّ هذه النصوص لم تجد الخلفية النقدية التي تدعمها فظلّ المثل بعيدا عن أغلب التصنيفات التي خضع لها النثر العربي القديم.

بنية المثل وأدبيته: يذهب المبرد إلى أنّ "المثل مأخوذٌ من المثال، وهو **قول سائر** يشبه به حال الثاني بالأول"[27]، **فالسّيرورة** خاصية من خصائص المثل لا يستقيم إلاّ بها، فلا يمكن أن يعدّ مثلاً إذا لم يسر ذكره بين الناس، وتعدّ الأمثال من أكثر أجناس القول ذيوعاً وانتشاراً بين الأمم والشعوب يقول **ابن وهب** في هذا الصدد: "أما الأمثال، فإنّ الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال، ويرون هذا النّوع من القول أنجح مطلبا وأقرب مذهبا(...) لذلك جعلت القدماء أكثر آدابها، وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم"[28]، ولذلك رآها **ابن عبد ربه** أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة "فقد نُطِق بها في كلّ زمان، وعلى كلّ لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيءٌ مسيرها حتى قيل أسيرُ من مثل"[29].

وهو ما يجعلنا نتساءل عن سبب هذا الانتشار، الذي يمكننا رده إلى بناء المثل وأسلوبه ومضامينه التربوية التوجيهية وما يتركه كل ذلك من أثر في المتلقي فكريا ونفسيا، لأن المثل "هو ذلك الفن من الكلام الذي يتميّز بخصائص ومقومات، تجعله جنساً من الأجناس الأدبية قائماً بذاته، وقسيماً للشّعر والخطابة والقصة والمقالة والرسالة والمقامة..." [30].

ولعل أولى تلك الخصائص أنّ المثل **ضربٌ من ضروب التّمثيل** تقاس فيه حال بحال وهيئة بهيئة مما يجعل **خاصية المماثلة** لصيقة به وأشهر صورها القول السائر بين الناس المنقول مما ورد فيه إلى حال مشابهة دون تغيير فيه كقولهم: "لو ذات سوار لطمتني"[31] ، وهو من أبلغ ضروب البلاغة نظراً لقدرته على **نقل المعاني من صورها الذهنية المجردة إلى صور حسية** من شأنها تقريب المعنى إلى المتلقي من خلال تشخيصه أو تجسيده، يقول **مسكويه** في بيان العلاقة الجامعة بين النفس الإنسانية والصور الحسية:"إنّ الأمثال إنما تضرب فيما لا تدركه الحواس مما تدركه، والسبب في ذلك أُنْسُنَا بالحواس، وإِلْفُنا لها منذ أول كونها، ولأنّها مبادئ علومنا، ومنها نرتقي إلى غيرها، فإذا أُخبِر الإنسان بما لا يدركه، أو حدّث بما لم يشاهده، وكان غريبا عنه، طلب له أمثالاً من الحسّ، فإذا أُعطِي ذلك أنس به وسكن إليه لإِلْفِه له"[32].

ويقول **ابن المقفع** (ت) في بيان بلاغة المثل "إذا جعل الكلام مثلاً كان **أوضح للمنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الكلام**"[33]، ويقول **الزمخشري** (ت 538هـ): "ولضرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في **إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق**، والمتوهّم في معرض المتيقّن، والغائب كأنّه مشاهد"[34]. ويقول **إبراهيم النّظام** (ت

231هـ): "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: **إيجاز اللّفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة**"[35]، ويقول **أبو حيان التوحيدي**: "أما **بلاغة المثل فأن يكون اللفظ مقتضباً والحذف محتملاً، والصورة محفوظة، والمرمى لطيفاً، والتلويح كافياً، والإشارة مغنية والعبارة سائرة**"[36].

وانطلاقا من هذه النصوص والأحكام النقدية المتفرقة يمكن أن نخلص إلى أنّ بلاغة المثل عند القدماء تقومّ على أربعة مقومات أساسية هي الإيجاز وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية .

الإيجاز: "هو أن يكون اللّفظ القليل مشتملاً على المعنى الكثير بإيماء ولمحة تدلّ عليه"[37]، فالإيجاز وفقا لتعريف البلاغيين العرب علاقة مخصوصة بين اللفظ والمعنى، فالمعروف في أعراف المتحدثين أنه كلما زادت الألفاظ والعبارات زاد المعنى وضوحا وقرباً من ذهن المتلقي ووقعت الإفادة، غير أنّ العبارة المثلية شاذة عن هذه القاعدة، فالإيجاز يعدّ أهم مقياس من مقاييس بلاغة المثل وأدبيته، والإيجاز ليس مجرد شرط من شروط الكلام البليغ ولا مقوماً من مقومات الجودة به تصنّف النّصوص وتتفاضل، بل تجاوز ذلك ليحتل "مكانة رفيعة في الجهاز البلاغيّ والنّقديّ وبلغ درجة من التّجريد كبرى حتى استحال مرادفا للبلاغة رديفاً لها"[38]، فرغم الخلاف الواسع القائم بين النقاد والبلاغيين حول ماهية البلاغة فإنّ التّعريف الذي قدّمه **أبو هلال العسكري** على لسان **ابن المقفع** لقي مساحة واسعة من القبول حين اعتبر **"الإيجاز هو البلاغة"**.

فقد صار الإيجاز مطمحاً لصناع الكلام وأرباب البيان وميزة بها يمدح المتكلّم ويفتخر، يقول علي بن أبي طالب "ما رأيت بليغاً قطّ إلاّ وله في قولِ إيجازٌ وفي المعنى إطالة"[39]، وقد ارتبط الإيجاز عند النّقاد والبلاغيين **بإصابة المعنى** حتى أصبح هذا الارتباط هو مكمن الجمال فيه.

التشبيه: إضافة إلى جمالية الإيجاز تتجلى أدبية المثل في مقوم آخر من مقومات البلاغة هو **التشبيه** وقد وردت عن النقاد العرب نصوص نقدية كثيرة تبيّن جمالية التشبيه وأهميته في صناعة المعنى، ولعل من أهم ما ورد في هذا السياق قول **عبد القاهر الجرجاني** :"وهل تشكُّ في أنّه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينَيْن، حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب، ويجمع بين المشئم والمُعرق، وهو يريك للمعاني الممثّلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة، يُنطِق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين"[40]، فالتشبيه من أساليب البيان الرفيعة المتفق على بلاغتها يمنح النّصّ صورة فريدة ويعطي المثل طاقة تصويرية هائلة لأنه متى استدعى في الخطاب أحال جملة من العلاقات الدقيقة تجمع بين أطراف كان من الصعب أن تجتمع ومزج بينها في سياق أدبي مختلف، وللتشبيه إضافة إلى الجانب التصويري وقعه الخاص على الجانب الدلالي للنص إذ يساعد على تقريب المعنى البعيد وتثبيته في ذهن المتلقي.

الكناية: لا شك أن الإيجاز الذي يتسم به المثل متصل اتصالاً وثيقاً بنظام الصورة فيه، فلما كانت العبارة المثلية قصيرة مختزلة من حيث الامتداد والحجم كان على الصورة أن تتدارك هذا الاختزال فتكون مكثفة موحية[41]. وإلى جانب جمالية التشبيه ينفتح المثل على شكل آخر من أشكال التصوير يعدّ مقوماً من مقومات الأدبية ولا يقل أهمية عن سابقيه وهو **الكناية** حيث يعدّ المثل ذاته ضرباً من ضروب الكناية والتّعريض، فالمتكّلم لا يدلي صراحة بالمعنى الذي يريد التعبير عنه أو ما يصطلح عليه **مضرب المثل**، وإنّما يعبر عنه كناية عن طريق المثل، أمّا **التّعريض** فـ"خلاف التصريح، والمعارض: التورية بالشيء عن الشيء(...) والتّعريض قد يكون بضرب الأمثال، وذكر الألغاز في جملة المقال"[42]، ووجوده في المثل يعطى العبارة أبعاداً جمالية تغني بالتّلميح عن التّصريح وبالإبهام عن الإفصاح، ولعل للإيجاز دوره في صناعة تلك الأبعاد لكونه يسهم في جعل النّصّ إشارة خاطفة.

ففي جمله الموجزة قوة بيانية هائلة يصنعها التركيز وحسن التقسيم وكثرة التلميح وبعد الإشارة ودقة البناء والصور البيانية...كقولهم: بلغ السيل الزبى/ رماه الله بثالثة الأثافي/ رمتني بدائها وانسلت، وغالبا ما لا يكون السجع من خواص المثل لحاجته إلى فواصل يتكرر فيها الصوت ولقصر المثل الذي يبنى في الأغلب من جملة أو جملتين[43].يقول الزمخشري:"إن الأمثال أوجزت اللفظ، فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى، ولوحت فأغرقت في التصريح وكنت فأغنت عن الإفصاح." [44]

هذا ويتميز النص المثلي **ببنية تركيبية تقريرية ذات جمل قائمة على الإسناد** كالجمل الاسمية المجردة من النواسخ، كقولهم: أول الصيد فرع، أنف في السماء ورأس في الماء/ أنا ابن كديها وكدائها/ أبي يغزو وأمي تحدث، والمنسوخة كقولهم إن من الحسن لشقوة. هذا وللمثل قيمة إخبارية كقولهم: تنهانا أمنا عن الغي وتروح فيه/ تسمع بالمعيدي خير من أن تراه/ تبشرني بغلام أعيا أبوه...

كما **يتميز المثل بإيقاع خاص**، بل يعد الإيقاع أحد مظاهرالتركيب المثلي البارزة كقولهم: سمن كلبك يأكلك. ومن صور هذا الإيقاع الإتباع كقولهم رمدت الظأن فربق ربق، يضرب لما ينتظر طويلا وقوعه، وتكرار الكلمات مثل: الثكلى تحب الثكلى، وتكرار الحروف على وجه الجناس:حرة تحت قرة[45].

إنّ المقومات الجمالية التي حظي بها المثل منحته سمات أجناسية ثابتة جعلت منه نصاً منفرداً له خصوصياته الأدبية والفنية، لعل التّمازجالحاصل بين تلك المقومات إضافة إلى الطاقات الفكرية والثقافية والمظاهر الإيقاعية التي تختزنها العبارة المثلية و**صورته القصصية الوعظية المسلية والمشوقة** هو ما أعطى المثل ذلك الحيز الواسع من الانتشار والتداول والشهرة[46] .